تعلمت من ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(٢)

١٤٣٦/٦/١٩هـ

أشرتُ في الجزء الأول من هذه السلسلة (تعلمت من ابن عثيمين (١)) إلى أن (وضوح الهدف) كان من المعالم البارزة في شخصية شيخنا رحمه الله-، وأتابع في هذا المقال ذكر أهم مفاتيح التميز في شخصيته، ومنها:

المعْلمُ الثاني: الثبات على المنهج والهدف الذي رسمه لنفسه:

الثبات على المنهج الحقّ مما امتدح الله به خيارَ هذه الأمة، فقال عن الصحابة: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[الأحزاب:٢٣]، وهو أحدُ صفات الأئمة الذين قال الله فيهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[السجدة:٢٤].

وهكذا كان شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلم يغيّر، ولم يبدّل، بل صبر، وثابر، موقنًا أن الحقّ في هذا الدين بمصدريه العظيمين: الكتاب والسنّة، على فهم سلف هذه الأمة، الذي نقله إلينا، ودعا إليه - على مرّ القرون- أئمةٌ

كبارٌ، أوذوا في سـبيل الدعوة إلى هذا المنهج، فمنهم من ضُرِبَ، ومنهم من غُرِّبَ عن وطنه، ومنهم من سُـجِن، ومنهم من قُتِل، في سلسلة من الابتلاءات التي سطّرها التاريخ بأحرفٍ من نور.

وشـيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدرك في مقتبل شـبابه انتشـار عددٍ مـن المذاهب والدعـوات المنحرفة، التي صَرفت عددًا غير قليـل من لِداته وأترابه في ذلك الوقت، أو أثّرت فيهم سلبًا من جهة القناعة بالطريق الذي سلكه، وهو طريق العلم والتعليم، بل ووُجِد من المنتسـبين إلى الإسـلام -في بعض البلاد- من يُعلن أن سبب تأخرنا هو التقيّد بالإسلام! عياذًا بالله.

وشـيخنا وإن لم ينله ما أشرتُ إليه من أذى حسّيٍّ مباشر -كالسجن والـضرب- إلا إنه ابتُلي ببعض التُّهم في عقيدتـه في أول القرن الهجريّ الحالي، التي كان منبعُ بعضها الهوى والحسـد، كدّرت عليه خاطرَه فترةً من الزمن، وكان أثر تلك القالةِ يُرى على وجهه، ويُلحَظُ في نفوس بعض النـاس، حتى أفضى مرةً إلى أحدِ طلابـه في كلية الشريعة وأصول الدين -التي كان يدرس فيها- وقال: يا فلان، سيظهرُ الله الصادق منّا. حدثني بذلك صاحب القصة الذي خاطبه شيخُنا بتلك الكلمات.

وهذا ما كان، فلم يزدد شيخُنا بعدها إلا رفعةً وظهورًا حتى توفاه الله وهو أحد أئمة المسـلمين في العلم، وأحد المرجعيات العلمية البارزة في الفتوى، وقصَدَه الناس من كلّ مكان في العالم.

وأحسـبه -بعد تلك الحادثة وما سـبقها- ممن انطبقت عليه مقولة الإمام الشـافعي -حين سـأله رجل فقال-: يا أبا عبـدالله، أيما أفضل للرجل أن يمكّن أو يُبتلى؟ فقال الشافعي: لا يمكّن حتى يُبتلى.

ومن صور ثباته على منهجه -وهو وثيق الصلة بوضوح الهدف عنده: أن شيخنا أدرك في بواكير شبابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جملةً من الصوارف الدنيوية التي بهرتْ زهرتُها وبريقُها فئامًا من النـــاس، فآثروا الوظائف والتجارة على ما كانـــوا فيه من الاشـــتغال بالتعلّم والتعليم، وهذا لا يُـــذمّ به صاحبُه بطبيعة الحال، لكنّه مما يمدح به من آثر الفاضل على المفضول، وصبر على تحصيل ثمراته.

ومَنْ تتبّع مصنفات شيخنا، أو سمع مجالسه العلمية؛ رأى أن الحديث عن هذه القضية يتنوع، ويظهر في كلامه بأســـاليب شتى، تُلْمسُ منها أثرُ التجربة بهذه المسألة، وإن أنسى فلا أنسَ قسمات وجهه، وتأثّره وهو يعلق -في شرح الواســـطية- على مقالات الفِرَق المنحرفة في أبواب الصفات، وكيف ضل من ضلّ منهم مع قوة ذكائه، وسعة اطلاعه، ثم ختم كلامه بسؤال الله الثبات على الحق، وألا يزيغ القلوب بعد هداياتها.

وفي هذا المَعْلمِ عبرةٌ، فلأن كانـــت الصوارف في عهده رَحِمَهُ ٱللَّهُ كثيرة، فهي في عصرنا اليوم أضعاف ما كانت عليه في عهده؛ من مروج العهود، وازدياد التفرق، وكثرة أسباب الفتن، والتباس الحق بالباطل على كثيرين، ما يوجب على العبد مزيدًا من الضراعة واللجوء إلى الله بالهداية والثبات، وللحديث صلةٌ إن شاء الله.